سقوط الطاغية ...عاشت بغداد

من أوراق أربعاء الحرية

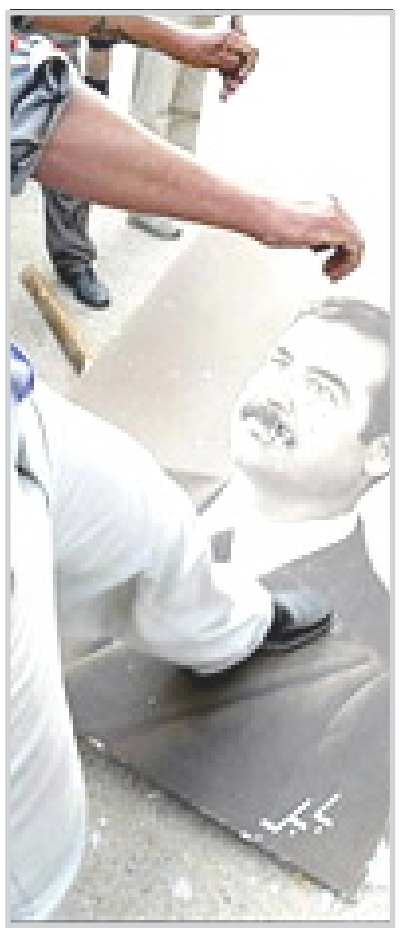

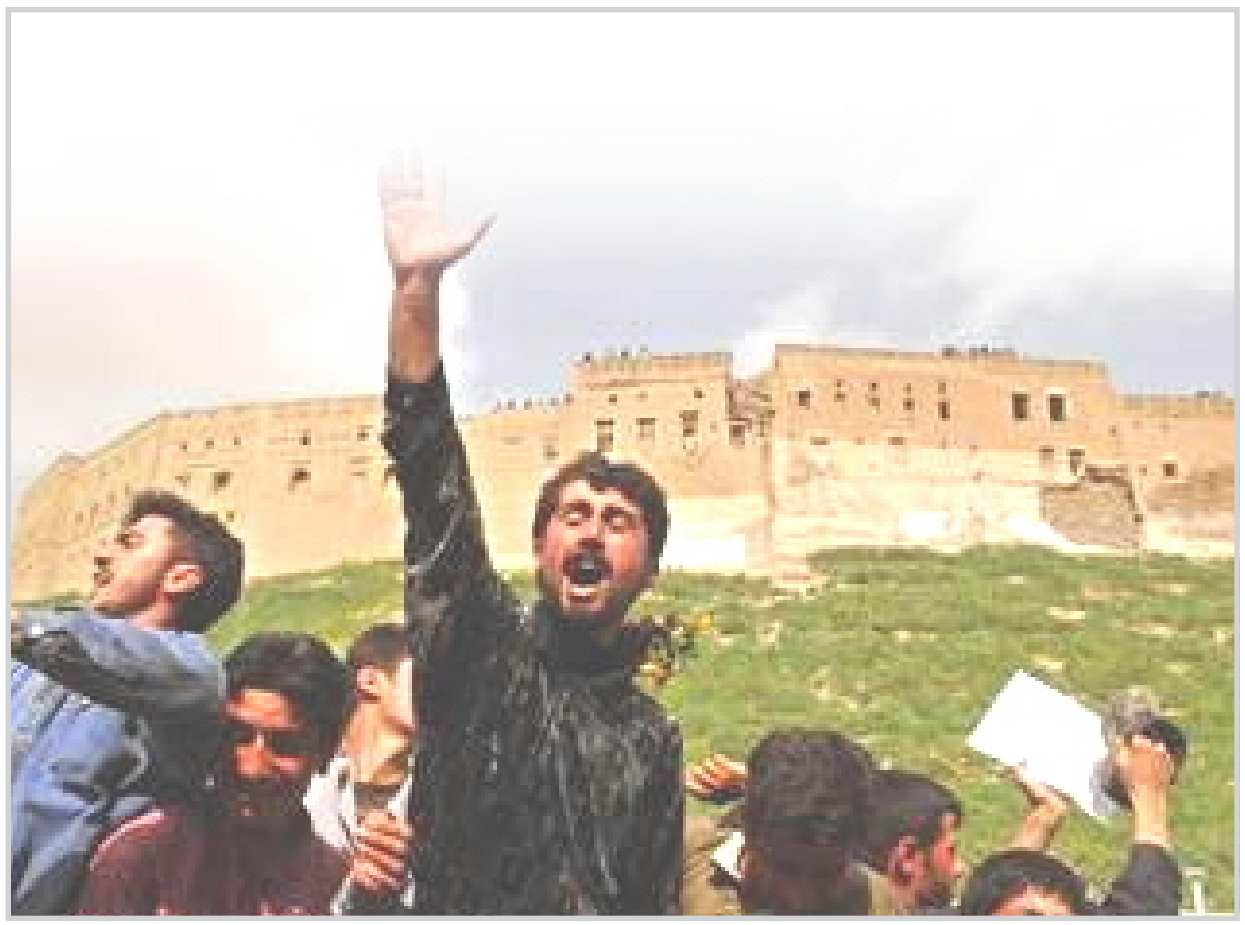

بغداد / صافي الياسري

ورقة خاصة
صباح الاربعاء ٢٠٠٣/٤/٩

كنت من الحالمين بالتغيير في العراق، وكنت من المتشائمين حد اليأس، والقنوط النهائي، وحين تصاعدت وتيرة الأحداث وارتفعت درجة حمى الحرب على النظام في العراق، وبخاصة بعد اجتماع الجزيرة الايبيرية الثلاثي بين خوزيه ماريا ازنار رئيس وزراء اسبانيا وبلير- رئيس الوزراء البريطاني - وبوش عميد أميركا، ثم الإنذار الثلاثي الأميركي بوجوب رحيل صدام ومهلة الايام القليلة التي حددت له ساعة صفر خاصة وضعتها على شاشاتها كل فضائيات العالم وصارت صدقية أميركا وحلفائها على المحك امام العالم كله، وتراقب ثانية بعد اخرى،ثم قرار قوات ائتلاف الراغبين بدخول العراق في كل الأحوال رحل صدام ام لم يرحل، بدأت خطوط النهاية تتأكد، لكن شكلها لم يكن متخيلا، ولا حتى لاكثر المتمعنين الدارسين المتمكنين، العارفين حتى بالخفايا، والساعين في دهاليز المطبخ السياسي الدولي ووصفاته، والعارفين حتى بالدلالات والشفرات السرية له .

وبدأت الحرب ونحن شبه مذهولين والرؤية أمامنا تكاد تكون معدومة، ومع صوت كل انفجار ودوي كل قصف وهدير الطائرات كانت الصور تزداد تداخلا وتشتبك خطوطها مع اننا كنا نعرف ان المسألة مسألة وقت حتى يتضح كل شيء فيما بعد، لكن نغمة جديدة بدأ الشارع يرددها مفادها ان اميركا جادة هذه المرة وليس كالمرات السابقة..

كنا نجتمع (بتضامن عائلي) يشتد قلقا ويتزايد خوفا من المجهول، لكننا، جميعا كنا نتحلق حول المذياع واسطتنا الوحيدة للمعرفة والاتصال بالعالم، بعد ان تهيأنا قبل ان تبدأ لحظات القصف على بغداد وعموم العراق، بخزين لا بأس به من الطعام و (البطاريات الجافة) —مع ان التيار الكهربائي لم ينقطع في حينا ولم يبرمج حتى، وصارت الناس تتساءل اين كانت هذه الهمة من قبل ؟؟ ظل التيار الكهربائي فعالا حتى صبيحة الانهيار الكبير في مدينة الكاظمية، وكنا نتابع عندما يهدأ القصف او يبتعد قليلا، فبغداد مهما عدت مدينة صغيرة، في الحقيقة مدينة مترامية الاطراف وكان تلفزيون (عدي) او تلفزيون الشباب، يبث نداءات لاغراء القادرين على صناعة (الفايروسات) الكومبيوترية، للاتجاه نحو (الاولمبية) قلعته، ومعقله، ومملكته، ودار حكمه وسجونه، وكنا ايضا نراقب الأوضاع في بغداد من فوق السطح غير عابئين بتهديد الطائرات ونصائح (النسوان)

—حتى ساعات متأخرة من الليل —بل ان مواعيد نومنا تغيرت، هي الاخرى، فلم يكن هناك برنامج ثابت، ولم نكن نستعد للمغادرة في النهار الى حيث نعمل، فالدوائر الرسمية مقفلة، وكذلك دوائر الشركات ومكاتب القطاع الخاص، والمحال التجارية، عدا بعض المحال المختصة ببيع المواد الغذائية، والخضر والفواكه، وهي تبيع مما لديها من خزين استعدت له مسبقا .

كنت استمتع بدفء الشمس نهارا، الا انها بدأت تسخن فتضطرني الى ترك السطح وتحرمني من مشاهدة لعبة الحرب وما يدور

—عيانا —من الزوايا الممكنة ، كما إنني كنت استخدم مكبرا لتقريب بعض الصور، وبخاصة ما يجري في دائرة الاستخبارات العسكرية —الشعبة الخامسة —التي كان اسمها وحده كافيا لإثارة الهلع، وهي جارتنا الكريهة، وقد قصفت هذه الليلة، وما زالت رائحة البارود في خياشيمي حتى اللحظة، بسبب حجم وقوة الانفجار، مما ادى الى تكسر زجاج النوافذ والأبواب في عدد من الدور في شارع المحيط القريبة من الدائرة، وبخاصة تلك المواجهة لفندق الكاظمية السياحي، الذي بدأ هو الآخر يعاني حريقا هائلا هذه الليلة، في تمام الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، اتى عليه باكمله برغم ان زوارق مديرية الإطفاء النهري، لا تبعد عنه سوى امتار، الا ان احدا لم يبال بما يحصل، وكان ذلك في الحقيقة —عندي شخصيا —المؤشر الاول على غياب او بدء غياب أجهزة الدولة،، الذي بدا واضحا كغياب تام صبيحة اليوم التالي، حين بدأ السكان يتجرأون على عناصر المفارز الحزبية ويطالبونهم بالاختفاء وعدم التصدي للقوات الأميركية بل حتى عدم الظهور في الشوارع، وفعلا بدأ هؤلاء ينسحبون من العقد، ومن الساحات ومن خلف المتاريس، بل من مقراتهم التي بدأ بعضها يحترق ، ومحتوياته تنهب بما في ذلك السلاح .

مساء هذا اليوم -٤/٨ — كان وزير الإعلام العراقي مازال يردد عباراته التي اشتهرت كنموذج عالمي للكذب الرسمي الحكومي، ومازال يتوعد ويتهدد وقد حدد صباح اليوم التالي موعدا لاجتماع الاعلاميين العرب والعالميين، لابلاغهم نبأ (العملية العراقية)، غير المسبوقة في التاريخ الحربي، والتي اكتشفنا زيفها فيما بعد، وانه لم يكن لديه اي اتصال بالحكومة ولا بالعسكر وان بياناته كانت فنتازيا صحافية خالصة، وكنا قد بدأنا داخل العائلة نسخر من مصطلح (العلوج) الذي سخر منه العراقيون كلهم فيما بعد، فقد فر الصحاف صبيحة يوم ٩/ ٤ ونسي موعده مع الاعلاميين بعدان اتضح كل شيء في صورة الدبابة الاميركية الواقفة على جسر الجمهورية معلنة سقوط القصر الجمهوري الذي تشرف عليه من الاعلى، والاخرى على جسر السنك معلنة السيطرة على فندق المنصور الذي كان مكانا لموعد الصحاف الإعلامي.

صبيحة الاربعاء — 9/4 —كانت الكهرباء، قد طارت من حينا، وتعطل التلفزيون، كما انه ليس هناك من يبث، علما ان بعض مواقع البث السرية، استمرت في العمل من اماكن محرمة، كبعض الجوامع وأضرحة بعض الأولياء، التي توقع النظام السابق انها سوف لن تقتحم، ولم تكن مواد البث سوى الاغاني التحريضية البائسة، والخطاب الدون كيشوتي للقائد الضرورة (الشارد)، وكنا عبر الراديو (نشاهد) سقوط تمثال ساحة الفردوس، وبالتأكيد لم نكن نصدق، بينما كنت أقول لعائلتي هذه هي النهاية، ورحت استعيد، ايام الاستدعاء العديدة الى أجهزة مخابرات وامن الكاظمية، لاثبت لها اني ما زلت بريئا.

سقط النظام اخيرا، او تلاشى او فر، او .. اية عبارة ترد ببالك يمكن ان تصور بها ذلك الاختفاء الكبير للجميع، تحقق الحلم الذي رعيته نبتة يائسة، ولكن ..، ليس هناك ما يهم، فكل شيء بما بعد او بما سياتي، بالزمن القادم، وليس مهما شكل من سياتي، ويحكم، هكذا كنا نفكر، جميعا نحن المضغوطين، تحت الواح التعذيب البعثي اليومي، وكنت استعيد صور أصدقائي وزملائي الذين غابوا، او غيبوا، وأبناء عائلتي المقربين، استذكرت يومها صديقي (اللدود) القاص شوقي كريم، حين وقفت سيارة المخابرات بباب الاتحاد (اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين) واختفى شوقي داخلها وغاب اكثر من سنة ونصف، والشاعر الكربلائي ماجد حاكم الشبلاوي الذي كان قد فقد عينه اليمنى في اثناء انتفاضة اذار ١٩٩١، ولم تغب عنه من حينها اعين النظام واجهزته، وصباح عبد الحسن العزاوي، الذي بقي مسجونا سنوات عديدة، حتى اطلقت القوات الاميركية سراحه من احد السجون السرية، بعد ان بقي اربعة ايام بلا طعام مع عدد من المعتقلين، واستذكرت السيدة انيسة حسن التميمي —التي اعدموا زوجها وثلاثة من اشقائها، واعتقلت هي وابنها وابنتها، وكانت حاملا يومها بوليدها (علي) الذي انجبته في الزنازين، وحكم عليها بالاعدام، ثم خفف الى اربعين عاما، دون اية قضية حقيقية، تداعت الصور امامي، وانا اكرر ان يوم -٤/٩- بالنسبة لي هو نوروز عراقي — وقد كان، وان كنا ما زلنا ندفع الثمن، دما، وخوفا، وفقرا، حتى اليوم، لكننا لم نعد في الاقل تحت النير الصدامي وهذا ما يكفي للقول اننا انطلقنا الى المستقبل احراراً .

أوراق عامة

العراقيون في عموم جغرافيا العراق، كانوا يرقبون الوضع، مذهولين، متوقفين امام خيارات صعبة، احلاها مر، فقد كانوا يرغبون بقوة في زوال النظام البعثي الصدامي، لكنهم في الوقت نفسه، كانوا يريدون ان يتم ذلك على ايديهم، واستحالة هذا التغيير، بهذه الطريقة، بسبب طبيعة توازن القوى داخل البلد، وكون التغيير مستحيلا، الا على يد قوة خارجية، هو الذي جعل اغلبهم يقفون متفرجين، وتلك حالة تسبب النظام نفسه بها، فقد كانت حالة العداء الشعبي العام المضمرة له، توازن بين خيارات صعبة، لم يتح لها تسارع الأحداث الفرصة لحسمها لمصلحة خيار ما، حتى انفجرت قنبلة الانهيار الشامل.

أوراق الجنوب

المحللون العسكريون، العرب والاجانب، الذين كانت وسائل الاعلام تنقل تحليلاتهم، وتوقعاتهم، كان اغلبهم —صباح هذا اليوم —مذهولا بالحدث الدراماتيكي —الغياب العام لاجهزة النظام والدولة —والجيش والشرطة والحزب - هذا الحدث الذي وصفوه بالانهيار الكبير غير المتوقع والسريع، وبعضهم استمر في توقع حدث ما غيبي، او مضمر، او مجهول، تماما كما هي شخصية وطبيعة —صدام - المجهولة والمضمرة والغيبية، التي اعتمدت اسلوب المفاجأة طوال حياتها، او ان في الامر لعبة غامضة، وبعضهم لجأ الى نظرية المؤامرة ومعطياتها لتبرير هذا الانهيار الذي لا يمكن تبريره الا بالهزيمة التي أبوا الاعتراف بها ففقدوا قدرتهم على الرؤية والتحليل الصادق الدقيق .

أوراق كردستانية Bay Bay – Saddam

السليمانية —دهوك —اربيل —والمدن والقرى التابعة لها، والاكراد على رؤوس الجبال وفي السفوح والوديان، اندفعوا الى شوارع المدن الرئيسة، في تجمعات عفوية حاشدة مهللين لسقوط النظام الصدامي، متطلعين لغد أفضل، وهم يستبشرون بانهيار حاجز الخوف من تهديدات الغازات ا السامة، التي اغتالت مدنهم وقراهم، وعوائلهم، وزهورهم وفراشاتهم وعصافيرهم، ويومها تناقلت وكالات الانباء العالمية التي كانت مقراتها في كردستان، تعج بالحركة والنشاط، مستغلة اجواء الامن والاستقرار التي توفرها الحكومة الاقليمية، وبعد المدن الكردستانية عن ساحة الحرب، صور التظاهرات الكردية والجماهير التي طافت شوارع —دهوك واربيل والسليمانية - وهي ترفع لا فتات كتب عليها Bay – Bay Saddam، وفي حينها علق الزميل فلك الدين كاكه ئي- صاحب امتياز جريدة التاخي —على الاحداث في كردستان وفي بغداد قائلا - لا تفسير لهذا الفرح العفوي سوى انه فك لعقدة الخوف من السلاح الكيمياوي في نفسية الانسان الكردي- وقال اخرون انهم يبتهجون بزوال الظلم او بنوروز جديد .

أوراق بغدادية

هذه هي الورقة التي استطيع ان اؤكد تفاصيلها بثقة مطلقة، فقد كنت شاهد عيان عليها، وعشتها ثانية بثانية، كنا قد نمنا متأخرين كالعادة، ليلة البارحة، بعد ان ارقني هاجس القلق، وانعدمت الرؤية عندي لما نحن مقبلون عليه، فقد تضاربت الانباء في وسائل الاعلام، حول مصير ووجود النظام والدولة في العاصمة، صباح هذا اليوم مع ان الخط العام كان يؤكد حقيقة الانهيار العام .

في تمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كان فندق الكاظمية السياحي، ما زال يحترق واصوات الانفجارات تدوي في جنبات العاصمة وفي عدد من احيائها وبخاصة في المناطق التي تحصنت فيها الدبابات والمصفحات وراجمات الصواريخ، التي وزعها النظام المباد داخل الاحياء السكنية، وبين البيوت دون مراعاة لاشتراطات الحرب والحياة المدنية، كما كان قد استغل المدارس والجوامع وعدد من البيوت السكنية، فحولها الى مخازن للذخيرة، ومقرات للمفارز الامنية، التابعة لاجهزة الدولة والحزب، ولم ينفعها احتماؤها بالمدنيين، فقد راحت طائرات (الهليوكوبتر)-الاباتشي الاميركية —المصممة لهذا النوع من المواجهات، تصطادها، وكذلك طائرات ف - ١٦-.

ثم امطرت سماء بغداد، مطرا غريبا لم نعتده —اسود —زيتيا —صبغ سطوح البيوت والاشجار والشوارع، والملابس التي كانت النسوة قد نشرنها على السطوح كعادة البغداديات، وكان السبب هو تلوث فضاء بغداد، بمخلفات احتراق البترول —النفط الاسود - الذي كانوا قد حفروا له نفقا خاصا يحيط ببغداد واجروه فيه ثم اشعلوا النار فيه، في محاولة يائسة وبدائية، لتضليل الصواريخ الذكية، والطائرات عن اهدافها، وهذا الصباح، على عكس بقية الصباحات كان هادئا بشكل مريب فقد توقف القصف الاميركي بكل اشكاله وتوقف اطلاق النار تماما .

الاخبار تقول ان الاميركان تمكنوا من السيطرة على مطار بغداد، والقصر الجمهوري، و .. اندفع البغداديون عموما الى الشوارع، في ساحة الفردوس، حيث كانت وسائل الاعلام، تنقل مشاهد السقوط الاخيرة للنظام، بالاسقاط الرمزي لصنم الطاغية، واندفعت كذلك عصابات المجرمين وصباح هذا اليوم ايضا، - وفي الكاظمية تحديدا —حيث اسكن - لم تكن قوات الائتلاف قد وصلت من ناحية الشمال مع انها تقدمت من ناحية العطيفية عبر شارع حيفا امتدادا من منطقة انطلاقها الجديدة التي هي الان القصر الجمهوري الذي استولت عليه ومن محيط وزارة التخطيط، على الشاطيء الايمن لدجلة قرب جسر الجمهورية كما ذكرنا، لذلك بقي طريق الموصل بغداد او سامراء —تكريت — وبقية المدن الاخرى الواقعة عليه مفتوحا، وبقيت بوابة بغداد مصدر رعب مستمر، فهي تقوم حيث تقوم مقرات الحرس الجمهوري وميليشيا فدائيي صدام، حيث لم نكن نعرف انها باتت فارغة اليوم، وكذلك ما زالت بعض المفارز الحزبية موزعة على بعض عقد شارع المحيط ولكن باعداد قليلة، وعلى سطوح بعض الدوائر وصولا الى —الشعبة الخامسة-، بدأنا نشاهد عمليات خلع (الزيتوني) العلامة الفارقة للبعثيين والاجهزة الامنية والجيش، وشاهدنا عمليات القاء السلاح على الارصفة وفي الحدائق، وخلع الضباط رتبهم، بل حتى هوياتهم القوا بها في الحدائق والطرقات وفي النهر وثيابهم في الجزرات الوسطية من الشوارع، واستعاروا من اصحاب البيوت القريبة في شارع المحيط (دشاديش) مدنية، لمواصلة طريقهم عائدين الى بيوتهم التي يقع بعضها خارج بغداد او في الضواحي، وقد اكد لي عدد من لاصدقاء ان المشهد نفسه تكرر في مناطق عديدة من بغداد وكان الجميع اتفقوا عليه

قلعة الموت

ابواب مديرية —الشعبة الخامسة —في الكاظمية، كانت تحتلها الدبابات الاميركية، والى جانبها يقف الجنود الاميركان الذين لم يتملكهم بعد هاجس الابتعاد عن العراقيين الذين كان بعضهم يحاورهم بلا عداء واخرون يلتقطون معهم الصور، وابواب المديرية مفتوحة على مصاريعها ولا حارس ولا رقيب، ورغبة الدخول اليها، عارمة، ففضول الاستكشاف لا يماثله فضول، والفرصة تاريخية لاتفوت، فليس كل يوم يسقط نظام بهذا الشكل، الناس هنا، من احياء بغداد ومن سكان الكاظمية، فالمواصلات بين مناطق بغداد لم تتوقف، وازمة الوقود لم تظهر بعد على السطح، واصحاب السيارات ما زالوا يحتفظون بخزين احتياطي لا باس به ومحطات الوقود لم تغلق ابوابها، وحملة تفريغ الشعبة الخامسة من محتوياتها قائمة على قدم وساق، .

وفي الحقيقة لم تكن —الشعبة الخامسة — دائرة رسمية بالمعنى المتعارف عليه، للدوائر الرسمية، فهي مدينة داخل مدينة، فيها محطة تصفية مياه، ومولدات كهربائية عالية الفولتية بحيث ان التيار الكهربائي لم يكن ينقطع عنها مع الاستثناء الذي تتمتع به من برامج القطع، وعمارات سكنية لعوائل الضباط والمنتسبين، - يوم التاسع من نيسان اي يوم دخلناها —كانت العوائل قد غادرتها وحملت معها اثاثها ولم يبق سوى الاثاث الملتصق بالحيطان فقط الذي لا يمكن إقتلاعه، واسواق تعرض شتى انواع البضائع افرغت هي الاخرى، واحواض سباحة وحدائق ومتنزهات وشوارع داخلية مبلطة، ومؤثثة، وحدائق حيوانات وطيور واحواض اسماك، ودار ضيافة، ومطاعم وبارات، ومستشفى عامة الاختصاص، ومستوصف وعيادة لطب الاسنان مزودة بكافة التجهيزات التخصصية، ومطار لهبوط الطائرات السمتية، وزنازين سجون وقاعات تعذيب، واقبية سرية، ومخازن بضائع وسلع وادوات مختلفة داخل جملونات مفتوحة، واثار القصف تبدو واضحة في العديد من الاماكن ، كما ان هناك قاعات سرية يتم الوصول اليها فقط بوساطة اشخاص يعرفون (خارطتها السرية) وهم على عدد الاصابع، وتفتح ابوابها بالطاقة الكهربائية، وهي باقفال مشفرة، ولا ادري كيف تمكن الداخلون الى هذه المدينة السرية، من تحطيم هذه الابواب، وفتح هذه القاعات المظلمة المليئة بالمياه التي سربت الى ارضيتها عن قصد، واطلاق سراح عدد من السجناء الذين اصيب بعضهم بالعمى، ومنع الجنود الاميركان الذين كان برفقتهم عدد من الاطباء تعريضهم الى الضوء خشية اتلاف شبكية العين، بسبب الحرمان من رؤية الضوء طويلا، وبعضهم وصل شعره الى خصره طولا، واظفاره التفت على بعضها، وبعضهم يجهل اين هو، ومتى سجن وماذا يجري وحسب، بل هو لايعرف حتى اسمه، وقد جمعهم السكان، في الصحن الكاظمي الشريف، وتولوا اطعامهم، وتنظيفهم والباسهم، بانتظار حضور ذويهم والتعرف عليهم، ومازال بعضهم حتى اليوم، تتولى الجهات الخيرية في مدينة الكاظمية، الانفاق عليهم، وايواءهم .

وهنا لم يترك شيء في المدينة،حتى اجهزة التعذيب، رايناها في اليوم التالي، ومنها (المفرمة البشرية) وحبال الشنق، والكلاليب، والشفرات، والكيبلات، والاقطاب الكهربائية، معروضة في ساحة النصر في الباب الشرقي، للبيع، ومازال البغادة، يحتفظون بنماذج منها على سبيل التذكرة .

وبعض المواطنين انصرف الى مهمة نبيلة، لم ننتبه الى اهميتها في البدء، تلك هي جمع الوثائق، والملفات، الخاصة بالسجناء والمفقودين السياسيين، ومن هؤلاء السيد مهدي الادريسي، - الذي اسس فيما بعد جمعية السجناء الاحرار، التي قامت بنشاطات مهمة، وفعالة في تحديد، مصير العديد من السجناء السياسيين والمفقودين، والاحكام التي صدرت بحقهم، والتي بقيت غير معلنة، وحتى مقابرهم السرية، .

والسيد —اية الله —عماد العوادي —الذي اسس فيما بعد جمعية السجناء السياسيين العالمية —وقد قال لنا —بمجرد سقوط النظام المباد، خطرت ببالي فكرة توثيق حقوق السجناء السياسيين في ايامه، وضرورة تحديد مصائرهم، فقد كان العراقيون محرومون من السؤال عن ذويهم، ويجهل العديدون منهم مصير ابنائهم، وانا كنت واحدا من نزلاء —قاووش الاحكام الثقيلة —في ابو غريب —حيث كنت محكوما بالاعدام، ثم بالمؤبد، ورايت الكثيرين، ممن نفذ فيهم حكم الاعدام، وظلت مقابرهم سرا، ومصيرهم كذلك، لم يعلن عنه، وبعضهم من غير العراقيين، ولذلك سعيت في اللحظات الاولى لسقوط النظام، لحماية الوثائق المتعلقة بمصائر السجناء، والملفات التي تحوي كل مايخصهم، خوفا عليها من ان يحرقها ازلام النظام، او العصابات، او الجهلة، الذين لا يعرفون قيمتها، وقد خصصت لها دارا في شارع المحيط اولا ثم انتقلنا الى ساحة عبد المحسن الكاظمي، وقد استفادت الاف العوائل العراقية والاجنبية من خدماتنا، وقد انتبهت المنظمات الانسانية، الى طبيعة عملنا، وكذلك الدولة، فحصلنا على دعمها، وتمكنا من تطوير عملنا، لكننا ما زلنا بحاجة الى المزيد .

ويقول السيد —هشام عبد الكريم 45 – سنه - وهو من سكان العطيفية، ويعمل مهندسا في خطوط الضغط العالي، في هيئة الكهرباء —تفرغت من عملي — الهندسي - لغرض خدمة العوائل العراقية والعربية والاجنبية، ممن كان لديهم سجناء في زنازين النظام المباد، ولم يعلن عنهم، ولم ترد اسماؤهم حتى في وثائق وملفات النظام، وبعضهم اخفيت اوراقه لاسباب،بعضها، انهم استشهدوا تحت التعذيب، وبدءا من يوم 49 – ، نشطت لتسجيل افادات عدد من المعتقلين الذين لم يكن بامكانهم الكلام سابقا ويعرفون بعض المعلومات عن عدد من السجناء مجهولي المصير، وكذلك قمت بتدوين ملاحظات استقيتها من عدد من (الدفانة) في سجن ابو غريب، ومقبرة الكرخ، ومقبرة محمد سكران، حول مواصفات بعض المدفونين ومتعلقاتهم، واماكن مقابرهم، وبخاصة أولئك الذين كان النظام المباد يشدد على سرية المعلومات بشانهم، بل يعدمها، ولا يترك مجالا لمعرفتهم الا في تلافيف الذاكرة الإنسانية، وقد تمكنت من تحديد مصائر بعض الضحايا، وما زلت انمي واطور عملي، والاحق المعلومة، حتى لو كانت في مكان بعيد، بشرط ان تكون صادقة حتى لو لم تكن مهمة بنظر البعض، فهي عندي مهمة .

وأخيراً، كانت هذه السطور، من بعض اوراق صباح التاسع من نيسان - 2003 —وهناك الكثير مما لم يقل بعد، لكن الوقت سيأتي حتما فيقال .

كتابة على الحيطان

٢٠٠٣/٤/٩

عامر القيسي

مهما اختلفنا على توصيف هذا اليوم وتقاطعت او تباعدت رؤيتنا للحدث الجلل صبيحة التاسع من نيسان فاننا ينبغي الا ندخل في جدل لا طائل من ورائه غير ابتعاد المسافات بين المختلفين وليكن ذلك الصباح ما يكون، ليكن ما يكون، الا ان الحقيقة الاكيدة التي طبعت ذلك اليوم بطابعها ووجودها التاريخي هي ان العراقيين قد شهدوا فيه سقوط سلطة الدكتاتورية ورمزها ونظامها ان كان هناك نظام، سقطت سنوات من العسف والذل وقطع الالسن والايدي والمقابر الجماعية واحراق مدن بكاملها بالسلاح الكيمياوي وهجرة اكثر من اربعة ملايين عراقي لاسباب سياسية واقتصادية وغيرها، سقطت في صباح ذلك اليوم والى الابد عصابة العائلة التي احرقت البلاد طولا وعرضا ووزعت عسفها متساوياً على كافة مكونات الشعب العراقي بلا استثناء بما في ذلك بعض رموز سلطة الطاغية واقرب المقربين اليه في اجواء مؤامراتية خبيثة. رئيس وعائلة وسلطة لم يكن همها من العراق برمته غير كراسي الرئاسة والسلطة والنفوذ وليذهب الشعب العراقي الى الجحيم. قائد وعائلة وسلطة لم تستجب في اي يوم من ايام حكمها الاسود الى منطق العقلانية السياسية وقادت البلد الى كوارث لم نتخلص من اثارها المدمرة حتى اللحظة. ملايين الارامل والايتام والمعوقين والمرضى نفسيا والمهاجرين خلف الحدود وداخلها ومستويات من الفقر لم يشهد مثيلا لها افقر بلد في العالم وضياع للثروات بل وتبديدها لمن لايستحقها من اجل التصفيق والهتاف وشرعنة دمار العراق تحت مسميات عديدة، اجواق من المداحين ومساحي الاكتاف يهرجون في بورصة السياسة الصدامية في عملية غريبة وجديدة لتبيض صفحة اسوء نظام استبدادي شهده التاريخ المعاصر للامم والشعوب منذ سقوط الهتلرية والموسيلينية. هذا جزء يسير من قائمة عناوين الآلام والوجع التي عاناها شعبنا والقائمة طويلة بل وطويلة جدا. الذي حدث بعد سقوط الطاغية لم يكن نتيجة مباشرة له بقدر ما كان نتاجا لانفتاح شهية دول الجوار لقضم ما يستطيعون من الكيكة العراقية فامتدت اصابعهم في كل مكان خالطة الالوان وحارقة الاخضر واليابس ومحرضة هذا الطرف على ذاك فضلا عن ارسالها للموت المعلب الينا على امتداد المساحة الجغرافية العراقية الذي حدث بعد التاسع من نيسان لم يكن نتاجا مباشرا له بقدر ما كان تجليا لمخاوف العروش من ان تهتز وتصبح في ذمة التاريخ ومخاوف الكراسي من فضاءات الحرية والديمقراطية التي عمت بعد سقوط صدام. السؤال المهم في كل ذلك هو:

هل كان قدر لنا ان يحصل كل هذا في وطننا لو ان البيت العراقي كان مرتبا وابوابه موصدة ونوافذه لا تفتح الا للريح الطيبة الدائمة ؟ قد يكون منبع السؤال من خلفية رومانسية سياسية لم تحنكم لافرازات واقع ما بعد ٤/٩ / ٢٠٠٣ بشكل جيد لكن الأكيد ان امام الجميع متسع من الوقت لترتيب البيت العراقي واغلاق الابواب وتفحص الرتاجات جيدا عندها سيدرك الآخرين ان للبيت شعبا يحميه .